

## المعرفة عند الإمام الغزالي

لقد كان الغزالي رحمه الله - واسع الإطلاع شديد النهم إلي المعرفة فبي كل علم ومن كل طريق وقد أثرت فيه البيئة أيما تأثير فلم يترك كتاباً يستطيع أن يصل إليه إلا قرأه أو مذهباً إلا حاول الإطلاع عليه ومعرفة أسرارها ، ولا موضوعاً من موضوعات المعرفة إلا تناوله بالبحث والتحليل ولا مشكلة من المشاكل إلا وبذل فيها كل ما في وسعه لحلها حتي أنه لفرط ذلك كان يتعمق هذه المذاهب والأفكار ويتشربها ويعيش معها لعلها تكون الحق ولعل ذلك هو السبب في تبقي آثارها هذه الأفكار أو بعضها في نفسه كما حدث مع الفلسفة فكما قيل عنه إنه ( دخل الفلسفة ليهدمها وما خرج منها ) (١) والدافع إلي ذلك أنه كان دائم البحث عن اليقين والمعرفة ، فهو في سبيل المعرفة حاول الإطلاع علي جميع علوم عصره والإحاطة بها ، كما بحث الأديان والفرق ، والفلسفات التي كانت تشغل أذهان الناس يومئذ ، وحاول كشف أخطائها ، ولقد كانت الرغبة في هتك أستار العلوم ومعرفة أسرارها فطرة وجبلة فيه ، ويتضح ذلك من قوله ( وقد كان التعطش إلي درك حقائق الأمور دأبي وديني من أول أمري وريعان عمري ، غريزة وفطرة من الله وضعتا في جبلتي لا باختيارى وحيلتي ) (٢)

(١) ابن تيمية : ( موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول ) ج ١ ، ص ٣٠٢ - القاهرة

١٣٢١هـ ، ١٩٠٣م .

د/ مصطفى حلمي ( ابن تيمية والتصوف ) ص ٢٢١ دار الدعوة ، ط ٢ ، عام ١٩٨٢م

الإسكندرية .

(٢) الغزالي - المنقذ من الضلال ، ص ٣٢٩ ، الإحياء ١٠/٥ .

ولكي نعرف الصلة بين المحبة والمعرفة عنده ، لا بد أن نستوثق أولاً من مبحث المعرفة ومكانته عنده لأنه يري أن المحبة ثمرة من ثمار المعرفة إذ أن المعرفة هي البذر الذي يوضع في الأرض فينمو حتي يثمر المحبة ( فمن لا نواة في أرضه كيف يحصل له نخل ؟ ومن لم يزرع الحب فكيف يحصد الزرع ؟ )<sup>(١)</sup> وقد تميز الغزالي بعقلية نافذة فذة تستطيع أن تحلل الأشياء منطقياً ليصل من المقدمات إلي نتائج صائبة ، ومعارف يقينية موثوق بها .

ولهذا فقد احتوت مؤلفاته الغزيرة علي أكثر العلوم والمعارف التي كانت سائدة في عصره ، وإن الجهد الذي بذله الإمام في البحث والتأليف وفي طلب المعارف إنما يدل علي تعطشه إلي الوصول إلي أقصى درجة من المعرفة وبنكرنا هذا بموقف الإمام الفخر الرازي ( ت ٦٠٦ هـ ) من العلوم أيضاً فقد كان نهماً للعلم كذلك حتى قال في وصيته عند موته ( إعلموا أنني كنت رجلاً محبباً للعلم ، فكنت أكتب في كل شيء لأقف علي كميته وكيفيته سواء كان حقاً أو باطلاً )<sup>(٢)</sup> ومع أن الفارق بينهما يتضح من وراء معرفة ما تناوله وما خرجا به من النتائج ومنها أن الغزالي كان يحتويه منهج الشك الملازم له باحثاً عن الحق دوماً والعالم حوله يموج بالأفكار المتصارعة والمذاهب المتقاتلة وحرصه علي إدراك الحق وتوصيله كان سبباً مباشراً في بساطة لغته وعدم التكلف فيها إلا من بعض الرموز التي يشير بها إلي أهلها ويضن بها علي غيرهم — وكانت لغته بعيدة عن الإطناب والغموض ولقد صدق حين قال ( قرب كلام يزيد الإطناب والتقرير غموضاً )<sup>(٣)</sup> بخلاف الرازي الذي آمن في الإطناب والإغراق في التفريعات . وهذا ما دفع أحد الدارسين له إلي القول ( والحق أنني كنت كلما عجزت عن متابعة الرازي في بعض المسائل أعود لأقرأ الغزالي في هذه المسائل نفسها التي تعقدت أمامي عند الرازي فيفتح أمامي ما استغلق علي عند الرازي ،

(١) الإحياء / ج ٤ ، ص ٣١٣ .

(٢) السبكي — طبقات الشافعية ، ج ٥ ، ص ٣٧ ( تاج الدين السبكي )

(٣) الغزالي : إحياء علوم الدين ، ج ١ ، ص ٩٧ .

وذلك في رأيي أهم ما يميز كتابة الغزالي عن الرازي ، فعند الغزالي نجد  
الوضوح والدقة وشخصية الغزالي السمحة المتواضعة ، أما عند الرازي فنجد  
الإطناب الشديد والتعقيد وشخصية الرازي المتحدية دائماً .<sup>(١)</sup>

وإذا كان الغزالي هو المدافع البارز عن التصوف السني ورافع قواعده  
وباني عمده فإن الحديث عن المعرفة عنده يستتبع النظر في أقوال من سبقوه وقد  
أكد هو والمتصوفة أن طريقتهم طريقة نوق لذا فإن الحديث عن المعرفة حديث  
متشعب وذلك راجع إلي طبيعة كل صوفي فكل يعبر عنها بتجربته الخاصة  
وكثيراً ما تتباين هذه التجارب وتختلف عندهم ، وذلك لأنها ليس لها ضابط إلا  
الوجدان والذوق ، ومنهج المعرفة عند الصوفية يمتاز في جملته عن مناهج  
الفلاسفة وعلماء الكلام والفقهاء لأن الصوفية عندما تحدثوا عن المعرفة جعلوا بها  
وسائل تدرك بها وشروطاً تتحقق بها وقد وصف الغزالي طبيعة المعرفة عند  
الصوفية وحقيقتها وصفاً دقيقاً يبين مدى تبحره في علومهم ومعرفة مادتهم حيث  
يقول ( وكانوا — أي الصوفية — أكثر ميلاً إلي المعرفة الإلهامية الفيضانية الذوقية  
، ولم تكن طريقتهم قراءة الكتب ولا تحصيل العلوم بل كانت طريقتهم إليها تطهير  
القلب وتهذيب النفس وضبط الجوارح والاستغراق في الذكر ، والفكر والبعد عن  
الشواغل التي تصرف الإنسان عن التركيز الذهني ، والحضور النفسي بين يدي  
الله ، وعندما يقومون بذلك كله ، ويدومون عليه ، حتي يكون شيئاً معتاداً لهم  
ويفضل من الله ، إلي أن يكون أهلاً لما يلقي في قلوبهم من نفحات وإشراقات من  
العلم الذوقي اللدني )<sup>(٢)</sup>

ومن هذا الكلام فهم أن المعرفة تتحقق للسالك بشرط تطهير القلب مما  
سوي الله تعالى والإقبال عليه بالعمل الجاد والاستغراق التام . فإذا حصلت

(١) د/ فتح الله خليف ( فخر الدين الرازي ) ص ٢٢ ، دار الجامعات المصرية ، ١٩٧٧ م .

(٢) الغزالي — الإحياء ، ج ٣ ، ص ٢٥ ، ٢٦ .

المعرفة أشرفت علي النفس إشراقات الوهب الإلهي من العلم اللدني وما يتبعه من السعادة الموقوفة علي ما ينكشف للعبد من أسرار العلوم الإلهية .

ولقد كان المتصوفة يرون أن المعرفة هي ( أول فرض افترضه الله علي عباده ، بدليل قوله تعالى : " وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ " (١) قال ابن عباس أي ( ليعرفون ) فجعل ابن عباس بذلك العبادة الحقّة هي المعرفة الحقّة فلا يتصور عبادة عن جهل وضلال . ( وأجمعوا — أي الصوفية — علي أن الدليل علي الله هو الله وحده ، وسبيل العقل عندهم سبيل العاقل في حاجته إلي الدليل ، لأنه محدث ، والمحدث لا يدل إلا علي مثله ، وقال رجل للنوري : ما الدليل علي الله ؟ قال : الله قال : فما العقل ؟ قال : العقل عاجز ، والعاجز لا يدل إلا علي عاجز مثله ) (٢)

ولقد امتاز الغزالي عن سبقه من الصوفية بأنه ، ( جعل التصوف طريقاً إلي المعرفة ، بالله ، واضح المعالم والحدود ) (٣) وقد أفاض الغزالي كثيراً في كتبه في الحديث عن المعرفة الصوفية من حيث أدواتها ومنهجها وموضوعها وغايتها مقارناً بينه وبين معرفة غير الصوفية من النظائر المعتمدين علي مناهج العقل وذلك لأن الناس اختلفوا في المعرفة هل هي فطرية ؟ أم كسبية ؟ أم مزيج بينهما ؟ وللإيضاح عن هذا — يجب التفرقة بين المعرفة والعلم فالمعرفة : ( إدراك الشيء بتفكير وتدبر لأثره .... وهي أخص من العلم ، ويقال فلان يعرف الله ، ولا يقال يعلم الله ) (٤) والفرق بينهما من وجهين الأول لغوي : والثاني معنوي .

(١) سورة الذاريات (٥٦)

(٢) السلمى — المقدمة في التصوف — تحقيق / يوسف زيدان ، ص ٣٥ .

(٣) أبو الوفا التفتازاني — مدخل إلي التصوف ، ص ١٧١ .

(٤) أحمد عبد الرحيم السايح : المعرفة في الإسلام بين الأصالة والمعاصرة — ص ١٢ ، ط ١

— القاهرة ١٤١١هـ ، ١٩٨٠ م .

والحاصل أن المعرفة نسبة الذكر في النفس وهو حضور ما كان غائباً عن الذاكر ولهذا كان ضدها الإنكار ، وضد العلم الجهل ، قال تعالى : " يَغْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا " (١) ( والفرق بين العلم والمعرفة عند المحققين ، أن المعرفة علي مدلول العلم وحده ) (٢)

واختلاف الدارسين والباحثين في المعرفة أثار ثلاثة من الآراء المهمة ولكل رأي من الأدلة والبراهين ما يدعمه .

أولاً : المعرفة مكتسبة ووسيلتها — الحواس — وهذا رأي قرره كثير من رجال الفكر الفلسفي وقد رفعوا في هذا الأمر من قيمة العقل ورأوا أن هناك عقلاً يتلقي الاحساسات التي تأتيه من الحواس وأن العقل كالصفحة البيضاء يتلقي الاحساسات فتكون بذلك المعرفة .

ثانياً : المعرفة فطرية ، وهذا رأي كثير من المتصوفة وذوي التفكير الذين تابعوا في هذا رأي ( أفلاطون ) الذي يرى أن الإنسان ولد ونفسه عارفة فلما اتصلت بالجسد نسيت وبهذا فإن الإنسان لا يكتسب شيئاً من المعارف بل يتذكرها لأنها موجودة في عالم المثل ولذا فإن ( أفلاطون ) يقول ( العلم تذكر ، والجهل نسيان ) (٣)

ثالثاً : المعرفة فطرية كسبية : في نفس الوقت — ويرى أنصار هذا الفريق ( أن العقل البشري بطبيعته يحتوي علي جزء من المعرفة الفطرية ، يضاف إليها جزء آخر مكتسب ) (٤)

(١) سورة النحل (٨٣)

(٢) الفيروزآبادي — بصائر نوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، ص ٧٧ ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(٣) فكتور سعيد باسيل ( منهج البحث عن المعرفة عند الغزالي ) ، دار الكتاب اللبناني ط ١ / بدون تاريخ ، ص ٢٣ .

(٤) د/ أحمد السايح ، المعرفة في الإسلام ص ١٥ .

وإذا كانت هذه هي آراء أهل الفكر في المعرفة ومصادرها فإن للمتصوفة رأي في وسيلة المعرفة تختلف عن الآراء والمذاهب السابقة فهم يرون أن العلم اليقيني إنما يجيء عن طريق الحدس ، والحدس : هو الإدراك العقلي المباشر الذي يدرك به العقل الحقائق إدراكاً وتدعن له النفس إذعاناً وتوقن به إيقاناً لا سبيل إلي دفعه .

وهذا يؤدي عند الصوفية إلي الكشف والكشف للحقيقة العليا وهي ذات الله هو الغاية من المعرفة . وقد وثب الإسلام بالمسلمين وثبة هائلة : ( وهذه الوثبة كانت علي إثر إشعاع القرآن الكريم في جنبات الدنيا والإنسانية فأنارها بعد ظلمة ، وهدى الإنسانية بعد حيرة ، ونظمها بعد اضطراب ، وفتق أذهان أبنائها بعد ارتقاق ، وأزال الأصفاد والقيود التي كانت تقف حجر عثرة أمام الفكر )<sup>(١)</sup>

وقد نجح الغزالي باستخدام ثقافته الواسعة في وضع نظرية في المعرفة يمكن اعتبارها ( متكاملة إذا قورنت بما خلفه السابقون عليه فيها من أقوال متفرقة) كما اعتبرت هذه النظرية تطوراً ملحوظاً في التصوف الإسلامي .<sup>(٢)</sup> وغايات المعرفة عند الغزالي هي [ التخلق ، والحب لله ، والفناء فيه والسعادة ]<sup>(٣)</sup>

لقد ربط الغزالي بين المعرفة والحب ، وبين العلاقة بينهما ، فهل يسبق الحب المعرفة ؟ وهل تنشأ المعرفة عن الحب ، أم أن المعرفة هي التي تتقدم الحب ، لقد حسم الغزالي الأمر فقرر أنه لا يمكن أن يتصور حب إلا بعد معرفة وإدراك ( إذ لا يحب الإنسان إلا ما يعرف ، ولهذا لم يوصف الجماد بالحب وإنما الحب خاصة من خواص الحي المنرك )<sup>(٤)</sup> ويكاد الغزالي يتفق مع المتصوفة والمتفهمة حيث يرى ( أن المعرفة بالله فطرية )<sup>(٥)</sup> وهذه المعرفة مركوزة في

(١) د. أحمد السايح ، للمعرفة في الإسلام ص ١٥ .

(٢) د/ التفتازاني / مدخل إلي التصوف ، ص ١٧٢ .

(٣) د/ التفتازاني - السابق ، ص ١٧٥ .

(٤) الإحياء - ج ٤ / ٢٥٤ .

(٥) الإحياء ، ج ٣ ، ص ١٢ .

القلب فكل قلب فهو بالفطرة صالح لمعرفة الحقائق ، لأنه أمر رباني شريف وهو محل الأمانة التي حملها الله له وهي المعرفة والتوحيد في القصد والعمل .

لقد كان الغزالي شديد التعطش لإدراك حقائق الأمور ( هذا العطش وإن كان غلب عليه في أول الأمر حب الجاه ونبوغ الصيت ، فقد كان كلما تعمق في العلوم تحرر من حب الجاه والصيت ، وكلما تحرر من حب الجاه قوي في نفسه التعطش إلي إدراك حقائق الأمور ) (١) فبعد أن كان يطلب العلم لأجل الجاه ، أصبح يطلب العلم لله تعالى ( قال بعض المحققين : معني قولهم : " طلبنا العلم لغير الله ، فأبي أن يكون إلا الله " : أن العلم أبي وامتنع علينا فلم نتكشف لنا حقيقته وإنما حصل لنا حديثه وألفاظه ) (٢) وهذا هو ما دفع الغزالي إلي التحول بكليته إلي طلب المعرفة والبحث عن الطريق الموصلة إلي الله تعالى .

### منهج الغزالي في طلب المعرفة

لقد كان الشك هو السبب في انطلاق الغزالي باحثاً عن المعرفة الحقّة ولكن متى بدأ الغزالي يشعر بالشك ؟ وما هو السبب الذي دفعه إلي ذلك ؟ لقد صور هذه المرحلة تصويراً دقيقاً في كتابه المنقذ من الضلال فيقول ( فأعضل هذا الداء ، ودام قريباً من شهرين ) (٣) لقد بدأ الشك عند الغزالي حين نظر إلي أمور الحياة والعلوم نظرة تحليلية عميقة ، باحثاً عن مبادئها الأولى وعللها البعيدة ، كما يفعل الفيلسوف حين يتوحش بسبب رتابة الحياة ، فقد وجد الغزالي منذ كان صبياً أن الناس قد أخذوا أديانهم تقليداً عن الآباء والأجداد ، وأن أبناء اليهود يولدون علي دين آبائهم ، وكذلك أبناء النصارى وأبناء المسلمين ، فتأمل هذه الأحوال وتساءل : لماذا يقبل الناس تلك الحقائق علي أنها مسلمات يقينية موروثة لا يمكن الشك فيها ، دون أن يقبلوها علي أساس من البرهان العقلي ؟ لذلك شك في التقليد وأراد

(١) د/ فكتور باسيلي - منهج البحث عن المعرفة عند الغزالي ( ٢٣ - ٢٥ )

(٢) الإحياء ، ج ١ / ٥٦ .

(٣) المنقذ من الضلال ، ص ١٠ ، تحقيق د/ عبد الحليم محمود .

أن يبحث من جديد ، وكأنه لم يتلق أي علم ولم يحصل علي أية معرفة ، ولكي يتقضي الحقيقة بنفسه ويتوصل بجهده إلي اليقين ليصبح إيمانه قائماً علي الاقتناع الذاتي دون الوراثة من الوالدين .

ولكن ماهي أدوات المنهج التي يعتمد عليها الغزالي ؟

لقد أقام الغزالي منهجه علي ركنين — أحدهما العقل ، والثاني الكتب المنزلة وكل من هذين الركنين يتم الآخر ويكمله ، فكما أن الرؤيا ، لا تتحقق إلا بشرطين أحدهما وجود العين الباصرة ، والثاني النور . إذ لا يمكننا أن نري الأشياء في الليل، وإن كانت أعيننا سليمة ، وإنما نبصرها بالعين ، عند نور الشمس ، والمنطلق العقلي عند الغزالي مؤداه الذي جعله يشك في أي الفرق علي حق هو (كثرة المذاهب وتعددتها) <sup>(١)</sup> وذلك لأن كل فرقة كانت تري أنها علي الحق وأنها الناجية وأن منهجها هو الأصوب وأما الركن الآخر الذي أقام الغزالي عليه منهجه في المعرفة فهو

#### الكتب المنزلة :

ويعتمد في ذلك حديثاً عن الرسول ﷺ الذي يقول فيه : ( كل مولود يولد علي الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ) <sup>(٢)</sup> ويتضح من هذا مكانة الفطرة عنده — كما قد أسلفت من قبل — ويتضح كذلك أن المعرفة عنده لا تقوم إلا علي ركنين : العقل والدين فلا يمكن لإنسان أن يعرف ما يعاقب أو يثاب عليه إلا بالعقل ، ولكن علي ضوء التعاليم المنزلة ، والكتب المقدمة ، وقد أقام الغزالي كتابه ( القسطاس المستقيم علي هذين الركنين ، فهو يمثل منهجه في طلب المعرفة ، أصدق تمثيل ، لأنه متخذ من التعاليم التي علمها الله للخليل عليه السلام .

(١) منهج للبحث عن المعرفة عند الغزالي ، ص ٣١ ، د/ فيكتور باسيلي .

(٢) البخاري في الجنائز ( ١٣٨٥ ) ومسلم في القدر ( ٢٦٥٨ / ٢٢ ) ومالك في الموطأ — الجنائز ١ / ٢٤١ (٥٢) وأحمد ٢ / ٢٣٣ .

وقد انتقل الغزالي من الشك إلى اليقين والإيمان بعد أن ظل فترة شهرين يعاني من الشك كان فيهما شبه مريض يبحث عن العلاج حتي شفاه الله ( من ذلك المرض وعادت النفس إلي صحتها واعتدالها ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوق بها علي أمن ويقين )<sup>(١)</sup>

## طرق الغزالي في الوصول إلي اليقين

لقد مر الغزالي في الوصول إلي اليقين بالخطوات الآتية :

١- المجاهدة الصوفية وتوهج النور الإلهي في القلب - وكما قيل المجاهدة سبيل المشاهدة فقد أصبح الغزالي - الباحث عن المعرفة - قريباً بذوقه وطبعه وحاله من المتصوفة في حياته وفكره وسلوكه ، فهو عندما تقلب في الشك سارع إلي الاعتكاف والخلوة والزهد في الحياة وظل يمارس مجاهداته الصوفية طوال مدة اعتكافه وخلوته ، حتي وصل إلي مرحلة قذف الله تعالى في قلبه نور اليقين ، حيث أصبح الحجاب مكشوفاً عنه ليدرك بهذا النور الإلهي كل الحقائق اليقينية ويؤكد ذلك بقوله : ( ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف )<sup>(٢)</sup> إذاً ( فالمعرفة هنا لا تدرك حقيقتها بالتعلم ، ولا تتال بالنظر العقلي ، بل بحسها الصوفي بشعوره وذوقه ، فمنهج الكشف من هذه الناحية هو منهج ذوقي في المقام الأول ، وهو منهج تتم لأصحابه به معرفة الله معرفة مباشرة )<sup>(٣)</sup> وبذا يصبح الكشف

(١) الغزالي ، المنقذ من الضلال ، ص ٣٢٢ .

(٢) الغزالي - المنقذ من الضلال ، ص ١٧ .

(٣) د/ الجزائر - منهج الكشف عند الصوفية ، ص ٤ ، ٥ بتصرف ، بحث مقدم لنيل الماجستير .

والذوق من خصائص المعرفة يقول الغزالي ( وأما الذوق فهو كالمشاهدة ،  
والأخذ باليد ، ولا يوجد إلا في طريق الصوفية ) (١)

والمعرفة بهذا الأمر يصعب نقلها من أحد إلي أحد فإن لكل تجربة حالة شعورية دافعة لها وناجئة عنها وقد أكد القرآن النور الذي يقذف في قلب العبد قال تعالى " وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ " (٢) وهذا النور هو ثمرة لمجاهدة النفس في سبيل الله ، وذلك لأن العبد إذا جاد بنفسه لله كما يقول : أسلم بن زيد ( أورث قلبه الهدى والتقى ، وأعطى السكينة والوقار والعلم الراجح والعقل الكامل ) وبذا فإن العلم الحاصل من لدن الله تعالى للعبد لا يتأتى إلا بمجاهدة النفس وقتل هواها .

٢- الحدس القلبي للحقائق اليقينية : لقد ذهب الغزالي ومعه الصوفية إلي أن البرهنة الوحيدة التي تصح عند الصوفية " العيان المباشر " ورؤية الإيمان في القلب ، وهذا نوع من المعرفة لا يصل إليه إلا القلة من الناس ( وعند الغزالي أن المعرفة الخاصة بالقلب لا يجدها إلا كل مكابر ) إن النور الإلهي يساعد القلب علي حدس الحقائق اليقينية التي تعجز عقولنا وحواسنا عن إدراكها وقد رأى الغزالي أن هناك حقائق يقينية أعلي من مستوانا البشري ، ولا يدركها إلا من تصوف وخلع عن نفسه رداء الدنيا والحسد وجاهد ليرقي إلي المستوي الروحاني العلوي ، حيث يقذف الله تعالى حينئذ في قلبه ذلك النور الإلهي ، وتلك النفحات الربانية التي تمثل الحقائق اليقينية مؤكداً ذلك بقوله ( من ذلك النور ينبغي أن يطلب الكشف ، وذلك النور ينبعث عن الجود الإلهي ، في بعض الأحيان ويجب التعرض له كما

(١) الغزالي - المنقذ من الضلال ، ص ٨٧ ، تحقيق د/ عبد الحلیم محمود - دار الكتب

الحديثة - القاهرة - ط ٧ .

(٢) سورة الأنعام ( ١٢٢ )

قال رسول الله ﷺ " إن لربكم في أيام دهركم لنفحات ، ألا فتعرضوا لها " (١) (٢) .

٣- عودة اليقين :

لقد عاد للغزالي يقينه وثقته فيما كان موضع شكه من قبل ولم يكن ذلك عن مجهود منه كما بين ذلك في المنقذ من الضلال ولكنه كان منة من الله تعالى بواسطة النور الإلهي فعادت إليه طمأنينة قلبه وراحة باله وشفى من مرض الشك حيث أصبح متيقنا من وجود الله تعالى مفرقا بينه وبين العالم الخارجي بكل يقين ودون أدنى شك ، لأن اليقين القلبي بوجود الله يجعل الإنسان متيقنا من صحة مخلوقات الله تعالى ، وقد جعل من النور القلبي والحدس القلبي وسائل يقينية لإدراك مختلف حقائق الوجود التي كانت موضع شك سابق قبل التوصل إلي اليقين الإلهي وكانت رحمة الله تعالى به واسعة فهداه إلي ( نور علي نور )

النور الأول ( العقل ) ، النور الثاني ( البصيرة ) وهما في الحقيقة طريقا المعرفة :

والطريق الأول - العقل - لا يتعدى نطاق الحواس ، وهذا النوع من المعرفة يجيز الغزالي فيه استخدام المنطق سواء في الأمور العقلية أو الفقهية ، ويرى أنه لا سبيل إلي تحصيل العلوم الموصلة إلي السعادة إلا بالمنطق ، ومع ذلك فإنه في مواضع أخرى يهاجم المنطق لأنه يثير الجدل واللجاج والشبهات حول العقيدة [ ويبدو أنه يريد بذلك إبعاد العوام عن طريق المحاجة المنطقية ] (٣)

(١) أوردة الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٣٣/١٠ ، وقال ( رواه الطبراني في الأوسط الكبير بنحوه ، وفيه من لم أعرفه ، ومن عرفتهم وتقوا )

(٢) الغزالي - المنقذ من الضلال ، ص ٣٣٤ .

(٣) د/ محمد علي أبو ريان / تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام ، ص ٥٠٧ ، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٣ م .

وهذا بدوره يسوق إلي التعمق في الفلسفة . والكلام ومسائلهما والتي هاجمها الغزالي وهتم أركانها .

أما الطريق الثاني ( وهو من لدن الله تعالى ) بلا مجهود ولكنه من عين الجود وسببه الاشتغال بالتفكير ، وهو طريق يبدأ بالمجاهدة أو بالمعاملة لصقل وتهذيب القلب وذلك بالزهد والعبادة وشدة التقوي استجاباً لإشراق العقل ( أي محو ظلمته ) وهذه هي معرفة الخواص الواصلين وهذه المعرفة ( تتم بلا واسطة من حضرة الحق ) (١) فإن ( الذي يكتسب لا بطريق الدليل وصلة الاكتساب يسمى إلهاماً ، والذي يحصل بالاستدلال يسمى اعتباراً واستبصاراً ) (٢)

وقد كشف الله تعالى عن غطاءه وشكته وأدرك أن من يهبه الله طريق الذوق والكشف يستطيع أن يصل إلي العلم اليقيني الذي لا شك فيه ، ولا يستطيع أن يصل إلي مرتبة الكشف إلا الواحد بعد الواحد ممن اختارهم الله وقذف في قلوبهم نوراً من نوره هو مفتاح المعرفة وسبيل الطمأنينة النفسية والعقلية والقلبية وبهذا تبين كيف وصل الغزالي إلي اليقين المطلق الذي كان ينشده ويتلهف إليه ولم يكن ذلك بطريق المعارف الحسية والمبادئ العقلية ولكنه كان بطريق النور الذي وقر في صدره عن طريق الحدس المعرفي .

” ما هو الحدس المعرفي الذي أتقنه من حيرته ؟ ”

لقد بينت من قبل أن الحدس هو سبيل العلم اليقيني عند الصوفية وعند الغزالي كذلك فهو كشف عقلي قد بلغ من الظهور والوضوح أن زال معه كل شك وبلغ من السرعة والبساطة أن يتم دفعة واحدة لا علي التعاقب ولا بد له من صفاء القلب ومجاهدة النفس حتى نصل إلي مرتبة من الصفاء تتيح لها من المعارف ما لا تصل إليه الحواس والعقول معاً ويقول الغزالي في هذا :

(١) د/ للتقاراني - المنخل ، ص ١٧٥ .

(٢) الإحياء ، ج ٣ ، ص ١٦ .

( إن الصوفية انتهوا إلي أن الطريق إلي إزالة الحجب بتقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها والإقبال بكنه الهمة علي الله تعالي ، ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولي لقلب عبده والمتكفل له بتتويره بأنوار العلم) (١) ويحدد الغزالي مرة أخرى المعرفة الحدسية بقوله : ( من مارس العلوم يحصل عن طريق الحدس قضايا لا يمكنه إقامة البرهان عليها ولا يمكنه أن يشك ولا يمكنه أن يشرك غيره فيها بالتعليم إلا أن يدل الطالب علي الطريق الذي سلكه واستنتجه ) (٢) وإذا كانت المعرفة الحدسية لا يستطيع المرء البرهنة عليها إلا أنها أيضاً لا يمكن أن يشك فيها ، لأن هذه المعارف الحدسية فيها اليقين المطلق الذي يطلبه الغزالي للعلم الحقيقي والذي اهتدي إليه أخيراً وقد أرجع الغزالي السبب في هذه المعارف الحدسية إلي أنها ( نور قذفه الله في صدره وهو ما يسمي بالعلم اللدني . (٣)

ويرى الغزالي أن ( حصوله ناتج عن اتصال النفس الكلية بالنفس الجزئية) (٤) وهذا النور أو العلم اللدني هو السبب المباشر في معرفة الله وهو أساسها فإن ( معرفة الله تحدث بواسطة هذا النور ) (٥)

وقد ميز الغزالي في الإحياء هذه المعرفة التي تورث الإيمان اليقيني عن الإيمان الحادث عن طريق التقليد وعن طريق المتكلمين ، فيقول عن علم الآخرة الذي غايته النهائية معرفة الله تعالي ( ولست أعني به الاعتقاد يتلقفه العامي ورائة أو تلقفاً ، ولا طريق تحرير الكلام والمجادلة في تحصين الكلام عن مراوغات

(١) الإحياء ، ج ٨ ، ص ١٣٧١ . ط دار الشعب - القاهرة .

(٢) الغزالي - معيار العلم - ص ١١٥ .

(٣) الغزالي - الرسالة اللدنية - ص ١١٦ .

(٤) الغزالي - الرسالة اللدنية ، ص ١١٦ . ط من القصور العوالي ، ج ١ ، تحقيق /

محمد مصطفى أبو العلا - طبعة الجندي .

(٥) الإحياء - ج ١ / ٥٨ .

الخصم كما هي غاية المتكلم بل ذلك نوع يقين هو ثمرة نور يقذفه الله في قلب عبد طهر بالمجاهدة نفسه من الخباثت (١)

وبهذا فإن العقل قد استعار النور من الله تعالى فإنه إن كان ( أنموذج من نور الله ) (٢) فإن الله تعالى هو الذي يسمى نوراً بالمعنى الحقيقي والإنسان حاصل علي هذا النور لأنه مخلوق علي صورة الله تعالى ، وهذا النور هو الذي يجعل معرفة الأصل — ( أي الله تعالى ) — ممكنة ( فإن العقل عندما يكون قادراً علي التجرد من كل ما لا يمثل جوهره الحقيقي ، فإنه يكون نوراً قد استعاره من الله الذي هو النور الحقيقي الوحيد الذي ينبعث منه كل نور ) (٣)

وبهذا يتبين أن المعرفة التي توصل إليها الغزالي في مرحلته الأولى من شكه هي المعرفة الحدسية ، وهي معرفة لا شعورية وهي عبارة عن نور قذفه الله في صدره ولكنه لم يكن بمعزل عن العقل ، فإن العقل عندما يصفو فإنه يستمد نوره من النور الحق وهو الله عز وجل .

ولقد مر الغزالي بمرحلة ثانية من أزمته الفكرية ولكنها سريعاً ما انتهت عندما قرر ممارسة التصوف — حيث وجدها الطريق المؤدية إلي الطريق الذي ينشده .

” حظ العقل من المعرفة الصوفية ”

لقد أوضح الغزالي أن الطريق للصوفي الخوذي بدوره إلي المعرفة له شرط هام وهو تطهير القلب وتفريغه تفريغاً كاملاً من كل ما عدا الله ، ومفتاح

(١) للغزالي ، الإحياء / ج ١ ، ص ٨٥ .

(٢) الغزالي ، المشكاة ، ص ٨ ، تحقيق الشيخ / مصطفى أبو العلا — طبعة الجندي .

(٣) للمرجع السابق ، ص ٨ .

ذلك هو استغراق القلب بالكلية بذكر الله " - وقد مارس الغزالي ذلك بنفسه في خلوته - وآخر هذا الطريق هو " الفناء بالكلية في الله " (١)

وهذا لا يحدث في الحقيقة إلا لمن عرف الله قبلاً مسترشداً بعقله ، وقد (توصل الغزالي إلى هذه المعرفة بطريقة فلسفية قبل تحوله إلى التصوف) (٢)

ويتمثل دور العقل في الطريق الصوفي في وظيفتين أساسيتين :

### الأولى :

وتأتي عن طريق العقل تستوفي الشروط المطلوبة للحصول علي المعرفة الصوفية وهذه الشروط بينها الإمام الغزالي وهي ثلاثة :-

( أحدها : تحصيل جميع العلوم وأخذ الحظ الأوفر من أكثرها ، والثاني : الرياضة ، الصادقة ، ..... والثالث : التفكير ، فإن النفس إذا تعلمت وارتاضت بالعلم ثم تتفكر في معلوماتها بشروط التفكير يفتح عليها باب الغيب .... فالمتفكر إذا سلك سبيل الصواب يصير من ذوي الأبواب ، وتفتح روزنة من عالم الغيب في قلبه فيصير عالماً كاملاً عاقلاً مودياً ) (٣)

### الثانية :

وهي الأساسية للعقل وهي واضحة بينه في الحكم الناقد علي التجارب الصوفية وتقويمها تقويماً صحيحاً فإن ( كلام الصوفية أبداً يكون قاصراً ، فإن عاذه كل واحد منهم أن يخبر عن حال نفسه فقط ) (٤) والذي يفهم قصورها هو اقتصارها علي صاحبها فإن طريقهم حقيقته ( النوق )

(١) المنتد من الضلال - ص ١٣١ .

(٢) الرسالة اللدنية ، ص ٣٦ وما بعدها .

(٣) السابق ، ص ٣٦ وما بعدها .

(٤) الإحياء ٤ / ٤٢ .

. وقد قامت دعوى مؤداها أن التجربة الصوفية أمور لا عقلية ، وهي خارجة عن نطاق العقل فوضح الغزالي - والذي يعتد بالعقل جداً - أنه لا يجوز مطلقاً في سلوك الطريق إلى الولاية بمفهوم الصوفية شيء ما يجد العقل نفسه معه مضطراً للحكم عليه بالاستحالة فيؤكد ( أنه لا يجوز أن يظهر في طور الولاية ما يقضي العقل باستحاله ) (١) وأن العقل قد يكشف له عن شيء ولا يدركه ، ولكن ليس من الممكن أن يكشف له عن شيء يحكم عليه العقل بالاستحالة . وقد أبان الغزالي عن الفرق بين الأمرين بالنسبة للعقل من حيث عدم الإدراك أو الاستحالة فيضرب لذلك مثلاً وكثيراً ما يلجأ إلي ضرب الأمثلة لتقريب المعاني من الأفهام المختلفة فيقول في هذا الأمر .

" نعم ، يجوز أن يظهر فيها ما يقصر العقل عنه بمعنى أنه لا يدركه بمجرد العقل ، مثاله أنه يجوز أن يكشف الولي بأن فلاناً سيموت غداً ولا يدرك ببضاعة العقل بل يقصر العقل عنه ، ولا يجوز أن يكشف بأن الله غداً سيخلق مثل نفسه فإن ذلك يحيله العقل لا أنه يقصر عنه " (٢)

وقد حاول الغزالي التفريق بين العلوم المكتسبة العقلية والعلوم الأخرى التي ينالها العارف بنور من الله فكان يرى ( أنه يوجد بجانب العلم المكتسب من طريق التعلم والدرس علم آخر يحصل عليه المرء مباشرة بدون واسطة أو تعلم ، وهذا العلم المباشر يكون للأنبياء والأولياء ويقع في قلوبهم بدون واسطة من حضرة الحق كما قال سبحانه : " وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا " (٣)

ويسمى هذا العلم بالإلهام وهو العلم اللدني (وهذا العلم يكون بعد التسمية، كما قال الله تعالى "س وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا " (٤)

(١) للمقصد الأسني - ص ١٠٠ لحة الإسلام - الغزالي ، تحقيق محمد مصطفى أبو العلا

- مطبعة الجندي ، بدون تاريخ .

(٢) للمقصد الأسني / نفس الصفحة

(٣) سورة الكهف ( ٦٥ )

(٤) سورة الشمس ( ٧ )

لقد كان الغزالي يبني جميع تصرفاته على الأوليات العقلية فيتعلم ويكتب ويؤلف ولكنه فقد يقينه بالعقل ودخل في دائرة الشك المعروفة حتى هداه الله تعالى بالنور اللدني فاستعاد به ( إيمانه بالأوليات العقلية وذلك بالكف عن طلبها فالنور الذي شفى به ، إنما هو تقطنه إلي وجوب الكف عن طلبها لأنها، لأنها حاضرة وأنه يضيعها بقدر ما يفتش عنها ) (١) ولقد قابل الغزالي بين العلم الكسبي العقلي وبين الوحي ، فإذا العلم يكتسب بواسطة الدليل والتعلم ، في حين أن الوحي هو المعرفة التي تهجم علي القلب من حيث لا يدري وهذا هو الإلهام أو ما يسمى بالنور ، وبينهما توافق لأنهما من توفيق الله تعالى فإذا ( أحضرت العلوم بالنفس علي ترتيب مخصوص استعدت النفس أن يحدث فيها العلم من عند الله تعالى ) (٢) وهذا العلم يدخل ضمن علوم [ لا نستطيع البرهنة عليه ، لان بطبيعته لا يقبل البرهنة عليه لأنه بطبيعته لا يقبل البرهنة ، كما أن طريقة معاینته أيضاً لا تقبل بدورها البرهنة ] (٣) .

والمعرفة الصوفية أدواتها القلب ومنهجها الكشف . أما من حيث الأداة للمعرفة فإن القلب مغاير للحواس والعقل ، ويقصد به ( الروح التي هي حقيقة الإيمان ) (٤)(٥)

(١) د/ باسيلي - منهج البحث عن المعرفة عند الغزالي ص ٢٧

(٢) معيار العلم للغزالي ص ١٨٢

(٣) فيصل بدير عون - التصوف الإسلامي للطريق وللرجال ص ٢١٢

(٤) الإحياء ج ٣ ، ٣ ، ٤

(٥) إحياء علوم الدين - ج ٣ ص ٣ ، ٤ - يطلق لفظ القلب لمعنيين :- أحدهما : اللحم الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر ، الثاني : لطيفه ربانية روحانية لها بهذا القلب للجسماني تعلق ، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان وهو المدرك للعالم للعارف من الإنسان ، وهو المتخاطب والمعاقب والمعاتب والمطلب ولها علاقة مع القلب للجسماني .

أما الروح : فيطلق على معنيين : أحدهما : جسم لطيف منبعه تجويف القلب للجسماني ، الثاني : هو اللطيفة للربانية للعامة للمدركة من الإنسان ، وهو الذي أراده الله في قوله تعالى ( قل الروح من أمر ربي ) [ الإسراء : ٨٥ ] وهو أمر عجيب رباني تعجز أكثر الأفهام والعقول عن إدراك حقيقته .

النفس : وهو أيضاً مشترك بين معان : أحدهما : أنه يراد به المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة في الإنسان وهذا هو الغالب على أهل التصوف لأنهم يريدون بالنفس الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان .

المعنى الثاني : هي اللطيفة التي هي الإنسان بالحقيقة ، وهي نفس الإنسان وذاته .  
لعقل : وهو مشترك لعمان مختلفة منها : أن يطلق ويراد به العلم بحقائق الأمور ، فيكون عبارة عن صفة العلم الذي محله القلب ، والثاني : أن يطلق ويراد به المدرك للملوم ، فيكون هو القلب - أعني تلك اللطيفة الربانية .

ويري الغزالي : ( أن القلب كالمرآة ، والعلم هو انطباع صور الأشياء وحقائقها في المرآة ، ولا بد أن تكون المرآة مجلوه حتى تستطيع أن تعكس بدقة خصائص العلوم ، والذي يجلي القلب هو مداومة ذكر الله تعالى ، والابتعاد عن الشهوات ، والإقبال علي طاعة الله تعالى ) (١) وبهذا فإنه يضع السبيل الذي به يسان القلب ويصقل ولاسيما أنه محل للنور الإلهي لذا فإنه يؤكد علي أن (المعرفة بالله فطرية) (٢) مركوزة في القلب وذلك لأنه محل الأمانة التي حملها الله له وهي معرفة الله وتوحيده ، ويحاول الغزالي زيادة الإيضاح بضرب الأمثلة على أن القلب هو أداه المعرفة الكشفية بمثال حيث يقول ( لو فرضنا حوضاً محفوراً في الأرض ، احتمل أن يساق إليه الماء من فوقه بأنهار تفتح فيه ، ويحتمل أن يحفر أسفل الحوض ويرفع منه التراب إلي أن يقرب من مستقر الماء الصافي ، فينفجر الماء من أسفل الحوض ، ويكون ذلك الماء أصفى وأدوم وقد يكون أغزر وأكثر ، فذلك القلب مثل الحوض ، والعلم مثل الماء ، وتكون الحواس الخمسة مثل الأنهار ، وقد يمكن أن تساق العلوم إلي القلب بواسطة أنهار الحواس ، والاعتبار بالمشاهدات حتى يمتلئ علماً ، ويمكن أن تسد هذه الأنهار بالخلوة والعزلة ، وغض البصر ويعمد إلي عمق القلب بتطهيره ، ورفع طبقات الحجب عنه حتى تتفجر ينابيع العلم من داخله ) (٣) ويضع الغزالي سؤالاً والإجابة عليه بقوله ( فاعلم أن هذا من عجائب أسرار القلب ، ولا يسمح بذكره في علم المعاملة ، بل القدر الذي يمكن ذكره أن حقائق الأشياء مسطورة في اللوح المحفوظ بل في قلوب الملائكة المقربين ) (٤)

فالقلب يحصل فيه صورته العالم وحقائقه تارة من الحواس وتارة عن طريق اللوح المحفوظ ، وإذا أرتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ ، رأى الأشياء فيه وتفجر إليه العلم منه ، فاستغني بذلك عن الاقتباس من داخل الحواس

(١) الإحياء جـ ٣ / ١١ ، ١٢

(٢) السابق ص ٣

(٣) معارج القلم للإمام الغزالي ص ١٣٤ طبعه القاهرة منه ١٩٢٧ م ، الإحياء ٣ / ٢٠

(٤) الإحياء ٣ / ٢٠

فيكون ذلك كتفجر الماء من عمق الأرض ، ومهما أُقبل على الخيالات الحاصلة عن المحسوسات كان ذلك حجاباً له عن مطالعه اللوح المحفوظ ، كما أن الماء إذا اجتمع في الأنهار منع ذلك من التفجر من الأرض .

( فإن للقلب بابان : باب مفتوح إلي الحواس الخمسة المتمسكة بعالم الملك والشهادة يحاكي عالم الملكوت نوعاً من المحاكاة ) (١) وعندما يقرر الغزالي أن علم الأولياء والصوفية علم وهبي يأتي عن طريق إطلاعهم على اللوح المحفوظ مباشرة ، أما علم الحكماء والعلماء فهو كسبي يأتي عن طريق الحواس الناقلة ، عن عالم الملك ، ويرى أن علم الصوفية مصدره القلب ، أما علم العلماء فإنه يأتي عن طريق الحواس . بعدما يقرر الغزالي هذا نراه يبين الفرق بين عمل الأولياء وعمل العلماء كذلك : بأن العلماء يحاولون اكتساب ذات العلوم التي يعمل الأولياء على اكتسابها إلا أن الفرق بينهما أن العلماء يحاولون جلبها من الخارج بالاعتماد على الحواس فيما يعمل أولياء الصوفية علي تفجيرها من داخل القلب (وهذه الطريقة لا تفهم إلا بالتجربة ، وإن لم تحصل بالذوق ، لم تحصل بالتعليم ، والواجب التصديق بها حتى لا تحرم شعاع سعادتهم ، وهو من عجائب القلب ، ومن لم يبصر لم يصدق كما قال الله تعالى " بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ " (٢) وقوله " وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكَ قَدِيمٍ " (٣) وبهذا يكون الإمام الغزالي قد وضع الفرق بين المعرفة التي تأتي عن طريق الحواس والمعرفة الكشفية التي تأتي من داخل القلب بعد إزالة كدرة المعاصي ورفع حجب البهوات ، إذ تتكشف له حقائق الأشياء المسطورة في اللوح المحفوظ ، ويسمى ذلك العلم الذي يحصل بالاكْتِسَاب ، وحيله الدليل اعتباراً واستبصاراً والعلم الذي لا يحصل بالاكْتِسَاب ولا حيله الدليل فيه : ذوقاً وكشفاً ، وهو إما إلهام أو وحي ، والإلهام خاص بالأولياء والأصفياء والوحي خاص بالأنبياء ، ويختلف الإلهام عن

(١) الغزالي - الإحياء ج ٣ ص ١٨ .

(٢) سورة يونس ( ٣٩ )

(٣) سورة الأحقاف ( ١١ )

الوحي في أن صاحبه لا يرى الملك المقيد للعلم ، أما الوحي فإن الأنبياء يشاهدون فيه جبريل حين يوحي به إليهم .

وإذا تبين أن الأولياء يبلغون معارفهم بطريق الكشف لا بطريق الاستنباط فالمعرفة الكشفية إذن وسيله لإدراك الحقيقة التي توصل إلي العلم اليقيني ، وهي الأمانة التي تشير إليها الآية الكريمة " إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا " (١) وقد حدد ذو النون المصري من قبل المعرفة الصوفية بقوله ( المعرفة إطلاع الخلق على الأسرار بمواصلة لطائف الأنوار ) (٢) وهذا يدلنا على أن المعرفة هنا ضرب من الإشراق الذي يحدث داخل النفس ، وهو الإشراق الذي يحدث بفعل عناية الله وفضله ، ومن هنا يتمكن صاحب هذه المعرفة من إدراك ما كان يبدو له مستحيلًا من قبل وفي هذا نفترق معرفة الكشف عن معرفة النظر أو الاستدلال (٣) يظهر من هنا أيضاً أن المعرفة التي يتوصل إليها الصوفي هي معرفة مباشرة ( بغير وسائط من مقدمات أو قضايا أو براهين ، إنها معرفة فوق عقليه لا يحوزها إلا من سلك طريق التصوف وألهم المعرفة المباشرة ومن هنا تسمى كشفاً ) (٤)

ولهذا أيضاً يرى الصوفية أن هذه المعرفة تمثل ( علم الصديقين وأن من كان له منها نصيب فهو من المقربين وينال درجة أصحاب اليمين ، وهي من مواهب الله وكرمه ، ولا تأتي إلا بعد طهارة القلب وتزكياته ، هنا لك تفيض الأنوار عليه من قبل الواحد الحق ، وإذا وصل المرء إلي هذه الدرجة سمي عارفاً ) (٥)

(١) سورة الأحزاب ( ٧٢ )

(٢) القفطي : إخبار العلماء بأخبار الحكماء - القاهرة سنة ١٩٢٦م - ص ١٢٧

(٣) د/ الجزلر - منهج الكشف عند الصوفية ص ١٥

(٤) د/ عبد الرحمن بدوي تاريخ التصوف الإسلامي ص ٢١ وكالة المطبوعات بالكويت .

(٥) المكي - قوت القلوب ١/ ١٧٣ .

ولقد وصل الغزالي في بيانه لمنهج الكشف وتوكيده بالأدلة العقلية والبراهين التي يراها إلي أن نشأ تيار منحرف من بعده اعتمدوا في فكرهم على مكانة الغزالي من النفوس فتشجعوا من بعده على التطرف والغلو دون حرج بحجة أنها (حصلت بطريقة كشف المشاهدة) (١) فعندما انفتح الباب على مصراعيه بدعوى الكشف والاطلاع أدخل فلاسفة التصوف وأرباب التجلي وأصحاب الحضرات في الفكر الإسلامي سموم الاصطلاحات الفلسفية والتعبيرات الرمزية (٢)

### معرفة الله ومعرفة النفس

لقد أكد الغزالي على أن المرء لا يصل إلي المكاشفة والتمتع بالقرب من الحضرة الإلهية إلا بمجاهدة النفس لأنها تميل بطبعها إلي الشهوات ولكنه مع تأكده على ضرورة المجاهدة كشرط للحصول على المشاهدة إلا أنه يؤكد أيضاً على ضرورة الفضل الإلهي ( فليس على المرء إلا الاستعداد بالتصفية المجردة وإحضار النية مع الإرادة والتعطش التام والترصد والانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرحمة ) (٣) وذلك يعني عنده أن مجاهدة النفس ما هي إلا وسيلة لتجلية القلب وتصفيته من أكاره وشهواته فإذا ما تم ذلك فإن السالك يكون مستعداً لتلقى إمدادات أنوار المعرفة الإشرافية ( لكن ذلك كله عند الغزالي يبقى معلقاً بانتظار الجود الإلهي أو المنة الربانية ) (٤) وهذه الرحمة ( مبذولة بحكم الجود الإلهي غير مضمون بها على أحد ولكن لا بد من الاستعداد للقبول بتزكية النفس وتطهيرها من الخبث والكدورة ) (٥)

(١) ابن تيمية - بغية المرئاد ص ٢٠

(٢) د/ مصطفى حلمي - التصوف والاتجاه السفلي في العصر الحديث ص ٢٨٩ - دار الدعوة الإسكندرية ط ١ .

(٣) الغزالي ميزان العمل ص ٤٦ ، تحقيق الشيخ / محمد مصطفى أبو العلا - مكتبة الجندي.

(٤) د/ الجزائر - منهج الكشف عند صوفية الإسلام ، ص ٦٦ .

(٥) الغزالي - ميزان العمل ص ٣٣

وليس المراد بتزكية النفس ومجاهدتها إلا ( تصفية القلب أو تحقيق طهارته ، ومن ثم يكون الكشف أو المشاهدة فإنه إن كان طريق العلم الحصولي النظر ، فالعلم الحضورى طريقه التصفية ) (١)

ولقد كرّس الغزالي كل جهوده من أجل الوصول إلي معرفة الله تعالى وهو يرى أن معرفة الله تعالى فطرية عند كل إنسان ، تماماً مثل الحقائق الرياضية وهي أول المعارف وشرط لها : ( فلو عرف الإنسان كل شيء ، ولم يعرف الله عز وجل فكأنه لم يعرف شيئاً ) (٢) وذلك أيضاً لأنه هو الموجود الحق ( فالموجود الحق هو الله تعالى ، كما أن النور الحق هو الله تعالى ، فإن كل شيء سواه إذا اعتبر ذاته من حيث ذاته فهو عدم محض وإذا اعتبر من الوجه الذي يسرى إليه الوجود من الأول الحق رؤى موجوداً لا في ذاته ، لكن من الوجه الذي يلي موجدته ) (٣)

والفرق واضح بين ماهية المخلوق وماهية الخالق والفرق بين الله والموجودات ( أن الله وجوده من ذاته وكل الموجودات الأخرى وجودها منه ) (٤) وأيضاً فإن كانت ( ماهية الإنسان ووجوده يمثلان ) أثنييه فإن ماهية الله ووجوده يمثلان وحدة واحدة ) (٥)

ولا يوجد ( على الحقيقة شيء غير الله وأفعاله ) (٦) أي مخلوقاته وعلى الإنسان أن يسعى دائماً إلي ما فطر عليه من معرفة الله تعالى ، و إن كان هذا من المستحيل فذلك لأن الإنسان قاصر عن الإحاطة بمعرفة ربه معرفة كاملة ، ولأن ( ماهيته الله لا يمكن أن يعرفها إلا الله نفسه ) (٧) وقد أكد الغزالي على هذا كثيراً

(١) طاش كبرى زاده / مفتاح السعادة - تحقيق كمال البكري ج ٣ ص ٦

(٢) الإحياء ج ٣ / ٦١

(٣) مشكاة الأنوار ص ٥٥ - تحقيق د/ أبو العلا عفيفي - الدار القومية سنة ١٩٦٤م

(٤) د/ زقزوق - المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت ط ٢ سنة ١٩٨١م ص ١٠٨ - مكتبه الأنجلو المصرية .

(٥) معارج القدس ص ١٨٩ وما بعدها

(٦) المقصد الأسنى ص ٢٥ ومعارج القدس ص ٢٠٦

(٧) المقصد الأسنى ص ٣٢ ، المعارج ص ١٠٤ إلجام للعوام ص ٢٧٠ ، المستصفي ص ٢٧ ، جواهر القرآن ص ١٢

وبين أنه (من المستحيل أن يحصل أحد على هذه المعرفة إلا الله وحده) (١) فهو يحيط ولا يحاط ، تقديس اسمه وتعالى جاهه وسلطانه والسبيل الوحيد الذي يستطيع المرء به أن يتقرب من معرفة الله تعالى معرفة غير كاملة - بطبيعة الحال - هو أن يعرفه عن طريق أفعاله أي مخلوقاته وتجليات قدرته ، يقول الغزالي ( والعالم هو السلم إلي معرفة الباري سبحانه فهو الخط الإلهي المكتوب المودع المعاني الإلهية ، والعقلاء على اختلاف طبقاتهم يقرعون ) (٢)

وإذا كانت معرفة الله معرفة كاملة تظل ممتنعة لا يستطيعها الفهم الإنساني ، فإنه لا بديل عن الاقتراب من تحقيق هذه المعرفة وذلك ( يكون عن طريق القلب الذي هو محل معرفة الله ) (٣) وهذه هي وظيفته الحقيقية التي عليها مناط التكليف ولا سبيل لمعرفة الله تعالى إلا إذا عرف الإنسان نفسه أولاً ، فإن معرفة الله تعالى متوقفة على معرفة النفس ( فإن من عرف نفسه فقد عرف ربه ومن جهل نفسه فقد جهل ربه ) (٤)

### معرفة النفس

( إن شرف الإنسان لاستعداده لمعرفة الله وإنما استعداده للمعرفة بقلبه ، وهو الذي إذا عرفه الإنسان فقد عرف نفسه، وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه ) (٥) ولكن هناك عقبات تقف في طريق هذه المعرفة ولا يصل الإنسان إلي معرفة الخالق إلا إذا كان في حالي صفاء قلبي وأن يكون جسمه خالياً من العلل . وقد فرق الغزالي بين الجسم والنفس فإن ( جوهر الإنسان بالحقيقة هو النفس الناطقة العاقلة المدركة العاملة ) (٦) وهي ليست جسماً ولا موجودة متحدة بالجسم أو في جزء منه والدليل على ذلك أنه لو ( فقد جزء من الجسم فإن النفس لا يعترها

(١) الغزالي / المقصد الأسنى ص ٢٩

(٢) معراج السالكين ص ٢٢٦

(٣) المنقذ من الضلال ص ١٤٤

(٤) د/ غلاب - المعرفة عند مفكري المسلمين ص ٣٢٢

(٥) الإحياء ج ٣ ص ٣

(٦) الغزالي / المعارف العقلية ص ٦٦ تحقيق عبد الكريم العثمان - دمشق ١٩٦٣ م

بمسبب ذلك أي نقصان ( <sup>١</sup> ) والنفس تتبع عالم الألوهية أو ( عالم الأمر ) أما الجسم فإنه يتبع عالم المادة ( أو عالم الخلق ) وهما معاً يشكلان الذات وهي محل للمعرفة وموضوع المعرفة كما يقرره كل من العلماء والفقهاء والمتصوفة هو الله تعالى ، والنفس تستند إلي أن الإنسان مخلوق على صورة الله ، وهذه الصورة التي يصفها الغزالي ويجلي معناها تتعلق ( بالذات والصفات والأفعال ، فماهية الإنسان هي نفسه وروحه ، وهي قائمه بنفسها ، فليست عرضاً ولا جسماً ولا جوهرأ متميزاً ، وليست مكانية ، وليست متصلة بالجسم ولا منفصلة عنه ) ( <sup>٢</sup> ) بالإضافة إلي ذلك فإن وجه الشبه بين صفات الإنسان وصفات الله تعالى ( أن صفات الإنسان مثل صفات الله تعالى من حيث أنه حي عالم مريد قادر ، وأفعال الإنسان تشبه أفعال الله من حيث إنه يتصرف في جسمه عن طريق إرادته كما يتصرف الله في العالم ) ( <sup>٣</sup> ) ولكن سبيل الإنسان لمعرفة الأشياء إنما يتم بضرب الأمثلة وقد كتبت صورة الإنسان - بخط الله - وهو ما جعله قادراً على معرفة الله تعالى وإن كان هناك تشابه في الأسماء والصفات بين الإنسان وربه تعالى فإنه تشابه من حيث الأسماء وليس من حيث الحقيقة وهو قياس مع الفارق ولكن منه الله هي التي جعلت ( الإنسان قادراً على معرفة الله وبذا أنعم الله على آدم فأعطاه صورة مختصرة جامعة بجميع أصناف ما في العالم ، ولولا هذه الرحمة لعجز الإنسان عن معرفة ربه إذ لا يعرف ربه إلا من عرف نفسه ) ( <sup>٤</sup> ) ويضع الغزالي الصورة في وضعها الحقيقي حتى لا تشتط العقول والأفهام فيبين أنه إذا كان يجب على الإنسان أن يعرف ذاته لكي يعرف ربه فمن الواجب عليه أن يعرف أن صفات الإنسان ليست كصفات الله فيقول ( اعلم أنا وإن تدرجنا إلي معرفة ذاته وصفاته أن معرفة النفس فذلك على سبيل الاستدلال ، وإلا فالله منزّه عن جميع صفات المخلوقات ) ( <sup>٥</sup> ) فإنه سبحانه " لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ

(١) الغزالي ، معارج القنس ص ٣٣ وما بعدها

(٢) الغزالي / المصنوع الصغير ص ١٥٩ تحقيق محمد مصطفى أبو العلا - مكتبة الجندي .

(٣) معارج القنس ص ١٩٨

(٤) مشكاة الأنوار ص ٧١

(٥) معارج القنس ص ١٩٧

البصير<sup>(١)</sup> وحتى يستطيع الإنسان أن يصل إلي معرفة الله تعالى وأنه هو خالقه ورازقه وحافظه ومدبر أمره ومعينه فلا بد أن يصل إلي معرفة حقيقية لذاته ( فإن من عرف نفسه وعرف ربه عرف قطعاً أنه لا وجود له من ذاته ، وإنما وجود ذاته ودوام وجوده ، وكمال وجوده من الله وإلي الله وبالله )<sup>(٢)</sup>

ويحدد الغزالي السبيل الموصلة إلي معرفة الله تعالى فإذا هي في طريقين :-

### الأول :

( أن يكون للإنسان ما لله من حكمة وقدرة وعلم وهو السبيل المسدود الممتنع لا على الناس فحسب ، بل على الأولياء والملائكة ، إذ لا ينبغي لأحد أن يطمع في مماثلة الله علماً وحكمة وقدرة ، والذي يطمع في ذلك ، منخلع عن ربه العقل وهذا ما أحاله الصوفية أنفسهم قال أبو بكر القحطي ( من لحقتة العقول فهو مقهور إلا من جهة الإثبات ولولا أنه تعرف إليها بالألطف لما أدركته من جهة الإثبات ، وأنشدوا :

مَنْ رَامَهُ بِالْعَقْلِ مَسْتَرشِداً      سَرَحَهُ فِي حَيْرَةٍ يَلْهُو  
وَشَابَ بِالتَّبْلِيسِ أَسْرَارَهُ      يَقُولُ مِنْ حَيْرَتِهِ هَلْ هُو

وقد سئل الجنيد :- بماذا عرفت ربك ؟ فقال : عرفت ربي بربي ، فلولا ربي ، ما عرفت ربي !<sup>(٤)</sup>

### الثاني :

( معرفة الصفات ، فإنه مفتوح لكل الخلق ولهم أن يجاهدوا فيه كل على قدر طبعه واستعداده ، والعارفون يتفاوتون في معرفة صفاته وأسمائه ، فالذي

(١) سورة الشورى ( ١١ )

(٢) الإحياء ج ٤ ، ٢٩٣ /

(٣) الكلاباذي - التعرف ص ٧٧

(٤) السلمي : المقامة في التصوف ص ٣٦ ، الرسالة القشيرية ٦٨ / ٢ منقولاً عن ذي النون المصري

يعرف علماً واحداً لا يمكنه أن يفهم العالم الذي يعرف عشره علوم إلا نسبه واحد على العشرة ، وكما أن نسبة فهم الإنسان للعالم تزداد بزيادة مقدار علمه فهكذا يزداد فهمه لله بقدر كثره علومه واتساع معارفه ، إلا أن معرفة الصفات والأسماء ثمرة الدليل العقلي هي معرفة يقينية إلا أنه لا يمكن أن تبلغ من اليقين ما تبلغه الرؤية والمشاهدة . (١)

وإذا كانت المعارف تختلف باختلاف وسيلتها فإن الغزالي يحدد ثلاث مراتب لليقين أو الإيمان (٢)

الأول :- إيمان التقليد وهو : إيمان العوام المستندون إلي الخبر وهؤلاء يصدقون ما يخبرهم به أهل الثقة كأن يقال لهم : إن فلاناً في الدار فيؤمنون بما يسمعون .

الثاني :- هو إيمان المتكلمين والنظار : وهم بنوا إيمانهم على الدليل العقلي والاستنباط كأن يسمعون فلاناً في الدار ينكلم فيعرفون أنه في الدار وقد يتطرق إلي هؤلاء ومن سبقهم الشك من كثره العلل وتسلسلها والدليل على هذا أن من بينهم من فقدوا إيمانهم بالله من الفلاسفة والمتكلمين - وهم بدورهم أفسدوا من بعدهم إن قدر أن يجمع بينهم حال من الأحوال .

الثالث : إيمان العارفين ويقينهم الذي يشهدون فيه الحق دون حجاب ، ومثلهم في ذلك كمثل من دخلوا داراً وفيها رجل فرأوه بأعينهم وهؤلاء هم العارفون حقاً .

وجملة القول هنا أن المعرفة اليقينية عند الغزالي إنما هي معرفة الصوفية التي تبنى على أساس من الذوق الروحي والكشف الإلهي ، وهي التي تقع في قلوب الأولياء بلا واسطة من حضرة الحق تعالي وهذا بدوره يؤدي لا محالة إلي السعادة فإنه يرى أن موضوع المعرفة الصوفية ذات الله تعالي وصفاته وأفعاله وهو المسمى موضوع لأسمي معرفة وهو ما يحقق السعادة وقد صور هذا في رسالته ( كيمياء السعادة ) وقد وفق الغزالي في اختيار هذا العنوان الذي عبّر به

(١) د/ فيكتور باسيلي - المعرفة عند الغزالي ص ٢١٧ ، ٢١٨

(٢) الإحياء ج ٣ / ١٥

تعبيراً صادقاً عن كيمياء السعادة الباطنية التي تقابل الكيمياء الظاهرية [ إذ كما توجد الكيمياء الظاهرية في خزائن الملوك لا في خزائن العوام ، فكذلك كيمياء السعادة لا تكون إلا في خزائن الله تعالى ولا تلتبس إلا من حضرة النبوة ، وكل من طلبها من غير هذا السبيل فقد أخطأ السبيل ] (١)

## ” المعرفة والمحبة ”

لقد استطاع الغزالي أن يسمو بالمعرفة الصوفية لدرجة أن جعل منها نظرية ذوقية في المعرفة وطريقة روحية تؤدي إلى السعادة .

وقد ربط الغزالي بين المعرفة والحب وبيّن العلاقة بينهما فهل يسبق الحب المعرفة ؟ أم هل تنشأ المعرفة عن الحب ؟

لقد أجمع الصوفية على أن حال المحبة في اصطلاح القوم ليست إلا [ لعبد نظر بعينه إلى ما أنعم الله عليه به ، ونظر بقلبه إلى قرب الله تعالى منه وعنايته به وحفظه وكلايته له فنظر بإيمان قلبه إلى ما سبق الله تعالى من العناية والهداية وقديم حب الله ، فأحب الله عز وجل ] (٢) والمحبة بعد هذا النظر ما هي إلا درجة رفيعة ينالها السالك لمعرفة الله كاستحقاق لتقواه ، وقربه من الله تعالى ، وإذا كان ذلك كذلك فإن صاحب هذه الدرجة يستحق معرفة الله على سبيل المشاهدة أو المعاينة ، وكان النورى يرى أن من طبيعة المحبة أن ينال صاحبها معرفة الكشف . يدلنا على ذلك قوله ( المحبة هنك الأستار وكشف الأسرار ) (٣) ولقد بلغت المحبة عند الصوفية مبلغاً عظيماً لدرجة أن بعضهم اعتبرها أصل جميع الأحوال إذ يقول ( اليافعي : الحب الخالص هو أصل الأحوال السنية وموجبها ، ومن صحت محبته ، تحقّق بسائر الأحوال ، من الفناء ، والبقاء ، والصحو ، والمحو ، وغير

(١) الغزالي - كيمياء السعادة - ص ٣، ٤ مع المنقذ من الضلال - مكتبة الجندي .

(٢) الطوسى : اللمع ص ٨٦

(٣) الطوسى : اللمع ص ٨٦

ذلك ( ١ ) وهي بهذا كحال رفيع من أحوال السالكين تقضي بصاحبها إلى شهود. الحقيقة ، بل قد يطلع علي معاينه أمور في الغيب ، ما كان ليراها أو يشاهدها دون أن ينال محبة الله تعالى .

ولقد قرر الغزالي أنه لا يتصور حب إلا بعد معرفة وإدراك ( إذ لا يحب الإنسان إلا ما يعرف ، ولهذا لا يوصف الجماد بالحب إنما الحب خاصة من خواص الحي المدرك ) ( ٢ ) وأول ما ينبغي معرفته وتحقيقه ، هو أنه ( لا يتصور محبة إلا بعد معرفة وإدراك ، إذ لا يحب الإنسان إلا ما يعرفه فإذا تحققت عند العبد أسباب المحبة وهذه الأسباب لا يتصور كما لها واجتماعها إلا في حق الله تعالى فلا يستحق المحبة بالحقيقة إلا الله سبحانه تعالى ) ( ٣ ) . وقد أكد الغزالي علي أن المحبة ثمرة من ثمار المعرفة والمعرفة هي بذرها ونواتها ولا يتصور ثمر بغير بذر و نواة ، وإذا كانت المحبة ثمرة المعرفة فإنها ( تتعدم بانعدامها وتضعف بضعفها وتقوي بقوتها ، ولذلك قال الحسن البصري رحمة الله تعالى : من عرف ربه أحبه ومن عرف الدنيا زهد فيها ، وكيف يتصور أن يحب الإنسان نفسه ولا يحب ربه الذي به قوام نفسه ؟ ) وكل شيء يحب بنسبته إلي الله كذلك وذلك لاستقرار المعرفة بأنه تبع لله فكلما كانت التبعية أكبر وأشد وأدوم كان الحب كذلك فإن الله تعالى هو ( المستحق لأصل للمحبة ولكمال المحبة استحقاقاً لا يساهم فيه أصلاً ) وللمعرفة تنشئ الطاعة والطاعة علي قدر المحبة والمحبة تورث النعيم وإن أعظم نعيم المحب إذا قدم علي محبوبه بعد طول شوقه إليه والناس متفاوتون في هذا النعيم علي اختلاف أقدارهم في المحبة والمحبة كما قلنا تبع للمعرفة فإذا تأصلت المعرفة وأثمرت المحبة يتحقق النعيم كما قلنا وهو علي قدر

(١) اليافعي : نشر المحاسن الغالية في فضل مشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية - بهامش جامع كرامات الأولياء - للبنهاني - طبعه دار الكتب العربية - القاهرة ١٣٢٩ ،

ص ٣٥٢

(٢) الإحياء ٢٥٤ / ٤

(٣) السابق ص ٢٠٠

قوة المحبة فكلما ( ازدادت المحبة ازدادت اللذة ، وإنما يكتسب العبد حب الله تعالى في الدنيا وأصل الحب لا ينفك عنه مؤمن لأنه لا ينفك عن أصل المعرفة ) (١) .

والمحبة الكاملة لها سببان رئيسيان : -

أولهما :- تخلية القلب عن غير الله تعالى فإذا طهر القلب من كل ما سوي الله تعالى وفرغ من غيره ( اتسع لنزول معرفة الله وحبه فكل ذلك مقدمات تطهير القلب ) وهو ما أشار إليه الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله ( الطهور شطر الإيمان ) (٢)

الثاني :- قوة معرفة الله تعالى واتساعها واستيلانها علي القلب وإنما ذلك بعد تطهير القلب من جميع شواغل الدنيا وعلائقها ( فإذا حدث ذلك بذور المحبة والمعرفة ) وهي الكلمة الطيبة التي ضرب الله بها مثلاً حيث قال ( ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ) (٣) وقد أثر عن الشبلي قوله ( علامة المعرفة المحبة ، لأن من عرفه أحبه ) (٤) وقال الجنيد ( المعرفة طلوع الحق علي الأسرار ، بمواصلة لطائف الأنوار ) (٥) وفي تعريف الجنيد نري أن المحبة منحة إلهية ووهب من جناب العظمة حتى تتكشف للعارف المحب الأسرار انكشافاً لا يبغي معه جهالة بنور الحق الذي يحق كل ظلمة تقف بين النفس وبارئها ، والملاحظ عند دراسة المقامات والأحوال عند الصوفية أنهم قد اختلفوا في المقامات والأحوال وبعضهم عدّ المحبة حالاً وبعضهم عدّها مقاماً ومهما يكن من أمر فإنهم مهما اختلفوا فإنهم مجمعون على أمر بعينه هو أن الغاية القصوى عندهم هي ( التحقق بمحبة الله ومعرفته ومشاهدة جماله وجلاله وكمال

(١) الإحياء جـ ٤ ص ٣١٦

(٢) أخرجه مسلم من حديث أبي مالك عن الأشعري .

(٣) سورة إبراهيم : آية : ٢٤ .

(٤) السلمى - المقامة - في التصوف ص ٣٧

(٥) السلمى - السابق ص ٣٧ .

وأثار هذا كله في العوالم المختلفة ( <sup>(١)</sup> ) وقد اختلط مقامي المحبة والمعرفة عند الصوفية وذلك عند تعريفهما وبيان حدودهما حتى أنهما لا ليتداخلان تداخلاً يصعب معه الفصل بينهما وقد عرّف الحلاج حقيقة المحبة بقوله ( حقيقة المحبة قيامك مع محبوبك بخلع أوصافك ) وقال أبو يعقوب السوسى ( لا تصح المحبة إلا بالخروج عن رؤية المحبة إلي رؤية المحبوب بفناء علم المحبة ) <sup>(٢)</sup> والذي يتدبر هذه التعريفات عند الصوفية والمؤلفين فيها ويحاول فهم مقاصدها ومحاورها وما ترمى إليه وما تدور حوله ، يجد أن ما سيطر عليها هو : فناء الإنسان عن نفسه ، وعن أوصافه وحظوظه وإنكار ذلك وإيثاره الله على سواه ، كل هذه شروط أساسية ينبغي أن يتحقق بها المحب لكي يكون محباً تصح محبته ويقال مثل هذا أيضاً عند التعريف بالمعرفة ويرى القشيري في رسالته أن العارف ( بمقدار اجنبيته عن نفسه تحصل معرفته بربه عز وجل ) <sup>(٣)</sup> ولقد وفق الغزالي في تحليله للعلاقة بين الحب والمعرفة وأسبقيه أيهما للأخر حتى سبق غيره فأضحى بذلك مسار دراسات شتى لمختلف نواحي علومه وأفكاره فقدم ( تحليلاً لعلاقة الحب والمعرفة لعله ليس أقل وضوحاً ودفقه مما يستطيع أن يقدم أي عالم من علماء النفس المحدثين ) <sup>(٤)</sup> وانتهى الغزالي في تحليل العلاقة بينهما إلي بيان أن المعرفة تسبق للحب وجعل الحب نتيجة المعرفة وهذا هو ما اتفق معه فيه علماء السلف من أصحاب المواجيد الذوقية أمثال ابن تيمية وابن القيم حيث يرى ابن القيم أن ( صفات الله ، ونعوت كماله ، وحقائق أسمائه هي التي تجذب القلوب إلي محبته وطلب الوصول إليه ، لأن القلوب إنما تحب من تعرفه ، وتخافه ، وترجوه ، وتشتاق إليه ، وتلتذ بقربه ، وتطمئن إلي ذكره بحسب معرفتها ، فإذا ضرب دونها

(١) د/ محمد مصطفى حلمي / ابن الفارض والحب الإلهي ص ٢٣٤ دار المعارف سنة

١٩٧١م مصر

(٢) انظر لرسالته القشيرية ص ١٤٣ - ١٤٨ تحقيق د/ عبد الحليم محمود .

(٣) انظر هذه الأقوال وكثيراً غيرها في رسالته للقشيرية ص ١٤٠ - ١٤٣

(٤) د/ محمد مصطفى حلمي - ابن الفارض والحب الإلهي ص ٢٣٩

حجاب معرفة الصفات ، والإقرار بها . امتنع منها بعد ذلك ما هو مشروط بالمعرفة وملزوم لها ، إذ وجود الملزوم بدون لازمه والمشروط بدون شرطه ممتنع (١) ومعنى هذا أن المعرفة متقدمة على الحب ( وأن شرط الحب المعرفة ، وهذا التقديم منطقي وملائم لطبيعة كل من الحب والمعرفة : إذ لا يمكن أن نتصور أن إنساناً أحب إنساناً أو شيئاً دون أن يكون قد رآه أو سمع به على أقل تقدير ، والرؤية والسمع طريقان من طرق المعرفة ، وإن كانا أقل رتبة من المعرفة الحدسية التي هي عند الفلاسفة أتم وأكمل من المعرفة الحسية والاستدلالية ، وهاتان الأخيرتان أقل رتبة عند الصوفية من المعرفة بالبصيرة الباطنة ) (٢)

ما هو سبب تفاوت الناس في المحبة ؟

لقد أكد الغزالي على أن المحبة تزداد بزيادة المعرفة وذلك في كل شيء أما من كان طالباً للسعادة بقاء الله تعالى فليترك الدنيا وراه كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم للصحابي ( ازهدي في الدنيا يحبك الله ) وعلى المرء الاستغراق التام بالتفكير والذكر الدائم فلهذا يصل إلى حالة الرضوان من الله تعالى .

ولكن المؤمنين مع اتفاقهم في أصل محبتهم لله تعالى إلا أنهم يتفاوتون في مقدار هذه المحبة وذلك ( لتفاوتهم في المعرفة وفي حب الدنيا إذ الأشياء إنما تتفاوت بتفاوت أسبابها ، وأكثر الناس ليس لهم من الله تعالى إلا الصفات والأسماء ) (٣)

وقد حرص الغزالي على تقسيم الناس من حيث تفاوتهم في المعرفة والمحبة التابعة لها بحسب علومهم في الدين ، فقسمهم إلى أقسام ثلاثة :

(١) ابن القيم / مدارج السالكين ج ٣ ص ٢٢٤

(٢) د/ محمد مصطفى حلمي - ابن القارض ص ٢٤١ السابق .

(٣) الإحياء ٤ / ٣١٩

الأول : الضالون : وهم الذين تخيلوا في الذات الإلهية وكمالاتها معاني يتعالى عنها رب الأرباب .

الثاني : أهل السلامة أصحاب اليمين : وهؤلاء ربما لم يطلعوا على حقيقة الذات الإلهية ولم يتخيلوا لها معنى فاسداً بل آمنوا بها إيمان تسليم وتصديق واشتغلوا بالعمل وتركوا البحث .

الثالث : وهم العارفون بالحقائق وهم المقربون وقد بين الله أقسام هؤلاء في قرآنه فقال " فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ \* فَرَوْحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ " (١)

وبالجملة فإنه كلما ازداد المرء على أعاجيب صنع الله إطلاعاً ازداد به معرفة وله حياً واستدل بذلك على عظمة الله الصانع وجلاله وبهذا يتفاوت أهل المحبة في محبتهم لله تعالى والتفاوت في المحبة هو السبب في التفاوت في سعادة الآخرة ولذلك قال تعالى " وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ نَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً " (٢)

وفي النهاية يكمل الغزالي منظومة المحبة والمعرفة حيث أنهما متداخلتان ، فيرى أن الغاية والهدف الأسمى من المعرفة عامة هي الحرص على سلامة التوحيد ولذلك قد ارتبطت نظريته في المعرفة بنظريته في التوحيد ( فالله وحده هو المعبود المتفرد الذي لا يقبل المعية بحال لأنها تستوجب المساواة في الرتبة ، وهذه المساواة نقصان من الكمال ) (٣) ( وإذا كان الكمال من كفيات الألوهية فإنه يصير من هذه الناحية موضوعاً للمحبة ) (٤) لأن معرفة الله تعالى هي أكمل المعارف وأشرف أنواع العلم فإنه إذا كان ( كمال المعرفة هو الاعتراف بالعجز عن معرفة الله ) (٥) وهو ما أكده الصوفية من قبل أن العجز عن الإدراك إدراك

(١) سورة الواقعة ( ٨٨ ، ٨٩ )

(٢) سورة الإسراء ( ٢١ )

(٣) الإحياء ٤ / ٢٧١

(٤) السابق ٤ / ٢٨٢

(٥) السابق ٣ / ٢٤٤

فإن العارف سوف يسلك طريق المعرفة للوصول إلي جصرة الذات العلية فنتحقق السعادة بالقرب من الذات الإلهية ، ولا أعنى قرب الأماكن - حاشا لله - فإله لا تحويه الجهات ولا الأزمان ولا تحيط به الأفهام ، ولكن هذا القرب يتم بالمعرفة والتي تعتبر السعادة ثمرة من ثمارها ويستحيل أن يعرف الله تعالى بالحقيقة المحيطة بكنهه صفات الربوبية إلا الله تعالى .

ومن الملاحظ أن المعرفة عند الغزالي وإن كان طريقها الكشف إلا أن قوامها الشرع والعقل معاً ، وقد وقف الغزالي عند حدود الدين وحفظ للوحي درجته وللأنبياء علومهم التي تعلو فوق كل علم أو تعلم بشرى أو معرفة صوفية كذلك ( فإن استخدام العقل عند الغزالي في ميدان الشريعة راجع إلي أن كل تكليفه إنما هو بشرط العقل ، ثم إذا ترقى السالك من مقام الشريعة إلي مقام الحقيقة استخدم منهج الكشف أو الذوق ، فالكشف ثمرة الشريعة واستخدام العقل يكون في البداية )<sup>(١)</sup>

في النهاية يجب أن نؤكد علي أن الغزالي وإن كان قد اتخذ التصوف سلوكاً ومنهجاً فإنه لم يهمل العقل بل اعتمد عليه فهو وسيلة من أهم وسائل المعرفة ، ويرى أن المعرفة اليقينية هي المعرفة الصوفية التي هي الكشف والمشاهدة ، وهي أرقى مناهج المعرفة عنده ، ولقد ترتب علي نظرية الغزالي في المعرفة نظريته في المحبة ونظريته في السعادة ، وبهذا فمن الممكن بحق أن نعتبر نظريته في المعرفة نظرية متكاملة إذا قورنت بما سبقه من أقوال فيها ، كما يمكن اعتبار نظريته تطوراً ملحوظاً في التصوف الإسلامي .

(١) الغزالي - فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ص ٧٤